سؤال

لماذا خَلَقَنا اللهُ؟

مصطفى أحمد ثابت

ع | مطوية رقم (٢) | مسلسل رقم (١١٨) ٢٠١٨

مبادرات طابة
TABAH INITIATIVES
www.tabahinitiatives.org

سؤال المعنى

فـي رحلة العقل البشـري فـي الحياة، يعتبر السـؤال عـن الغاية والمعنـى من أهم أسـئلة الوجود الكبرى، لمـاذا وُجِدْنا في هذه الدنيا؟ ما هو معنى الحياة؟ هل لهذا الوجود غاية؟ كيف يمكن أن أنـال السَّـعادة؟ وهل هناك طريق آخر للسـعادة غـيْر الجَرْي وراء اللذات الجسمانية العاجلة؟

"والمؤمـن عن أدلة وبراهين لا تقبل الشـك، وصـدّق بأن للكون خالقًا وبأنه أرسـل إليه الرسـل لِيُبَيّنوا له وجْهَتَه في الدنيا ومُرادِ الله منـه، يعتقـد أن الغاية التـي من أجلها خُلِقَ الإنسـان هي أن يَعْـرِفَ اللهَ وأن يُحبَّه، ويُوحّده ويسـعى في عمـارة الأرض وتزكية النفـس؛ ويتحلـى بمـكارم الأخـلاق كالعـدل والشـجاعة والعِفّـة والصبر والحكمة، ليسـتكمل تحصيله للكمال البشـري شـيئًا فشيئًا، فهذه هي وظيفة الإنسـان وفق الرؤية الدينية الإسـلامية التي يترتـب عليهـا تحقيـق السـعادة فـي الدنيـا والآخـرة، ويفهـم من خلالها الغاية من وجوده، ومعنى حياته."

هل لأفعال الله دوافع نفسية؟

ولكن لأن الحياة بُنيت على الصعوبات والمشاق، ويختلط فيها الحب بالألم، والسعادة بالكَدَر، وقد يشتدّ الألم والابتلاء على بعض الناس في الدنيا فيتمنى أن لو كان عَدَمًا لم يُوجَد، ويتمنى أن لم يكن مكلفًا بالصبر، فإن السؤال عن الحكمة من خلق الله لنا قد يتعدّى من إرادة معرفة وظيفة الإنسان في الدنيا ومُراد الله منه، وما هي الفوائد والكمالات والسعادة التي سيجنيها البشر من إدراك غاية وجودهم، إلى السؤال عن دوافع خلق الله للخلق؛ بمعنى ما هي الفوائد والمنافع التي جناها الله من خلق الدنيا والناس؟ فيسأل سائل: ما الذي سيستفيده الله من خلقه للعالم؟ ولماذا يأمرنا الله بعبادته إن كان غنيًا عن عِبادِه وخَلْقه؟ ولماذا لم يخلقنا الله مُنعّمِين في الجنّة مباشرة ما دام غنيًا عنا؟ وبعضهم يقول وحاشاه سبحانه: "هل كان الإله ضَجِرًا يشعر بالملل فخلق الخلق كي يتسلى؟".

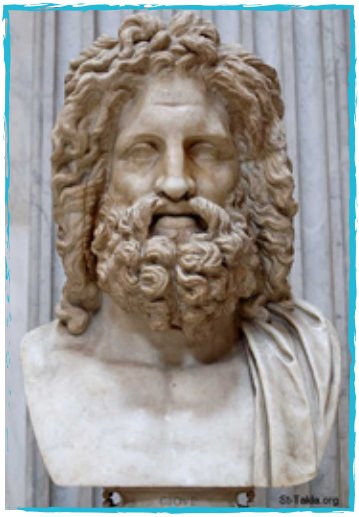

والحقيقة أنّ منشأ الحيرة والمغالطة في كل هذه الأسئلة هي افتراض أن الله سبحانه يشبه الخلق في وجود دوافع نفسية، وبواعث وشهوات ترجع إليه وتدفعه إلى الفعل مثل البشر تماما، أو ما يمكن أن نسميه بأنسنة الإله Anthropomorphism أي إكساب الإله الصفات البشرية في الصورة أو المعنى، وهي الفكرة التي أنتجت كثيرا من العقائد الوثنية في التاريخ، فآلهة اليونان مثلا مثل أبوللو وأفروديت وزيوس كانت آلهة تحركها دوافع العشق والغيرة والشهوة والانتقام مثل أي إنسان متهور، وكذلك انتشر التشبيه في اليهود، فإله العهد القديم هو إله يمشي في الجنة ويجلس على كرسيه كما يجلس البشر ويصارع بعض خلقه في الأرض، وخلق السماوات والأرض ثم استراح في اليوم السابع، إلى غير ذلك من التشبيه الواضح والأنسنة الصريحة لحقيقة الإله.

والحقيقة أن الإسلام جاء لينفي هذا التصور الوثني للإله وينفي عنه مشابهة المخلوقين، ليحقق معنى التوحيد الخالص، ولذلك كان أول ما نزل من القرآن المكي ما يدعو إلى تنزيه الخالق ونفي التشبيه عنه ونزع الصفات البشرية التي ألصقها به وثنيو قريش والعرب من جهة أو اليهود والأمم السابقة من جهة، فجاء يقول: **{فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ}** [النحل: ٧٤] أي لا تشبهوه بالمخلوقين، ويقول في سورة مريم: **{هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}** [مريم: ٦٥] أي مثلا أو شبها، وجاء أيضا يقول: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}** [الشورى: ١١] وجاء يقول: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ}** أي ما أصابنا من تعب [ق: ٣٨] وقال: **{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}** [الإخلاص: ٤] أي ليس له شبيه أو مثيل.

فمن يسأل عن «الدوافع النفسية» و«المصلحة» و«الفائدة» التي سيجنيها الإله من أفعاله؛ أو من يتصور أن الحياة الدنيا هي مجرد لعبة شبيهة بـ "ألعاب الفيديو" صنعها الإله ليتسلّى بها ويَدْفَع عن نفسه المَلل والضَّجَر لم يستطع أن يفارق التصوّر الوثني للإله الذي يُجاري الإنسان في رغباته، ويتحرك بنفس دوافعه، ويفعل ليحصّل لنفسه فائدة وكمالا أو يدفع عن نفسه ضررا، فهذا صورة لإله صَنَعَهُ وَهْم الإنسان، وليس هو الإله الحق الذي يقول: **{إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}** [إبراهيم: ٨] وليس هو الإله الذي يقول: **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧)}** [الأنبياء: ١٦، ١٧] ومعلوم أن حرف "لو" في اللغة العربية هو حرف امتناع لامتناع أي يستحيل على الله أن يتخذ لهوا لأن ذلك لا يتصور في حق الإله المنزه عن أوصاف البشر.

كذلـك ليس معنـى نفي الأغـراض والدوافع النفسـية في أفعال الله أنه –سبحانه وتعالى –غير موصوف بالحكمة، لأن الحكمة في أفعالـه هـي المصالـح والمنافع العائـدة على المخلـوق لا عليه، فكل فعل من أفعاله في السماوات والأرض أو في نفس الإنسان دالٌ عليـه ومُوصّـل إليـه، وأعظـم الحكـم والثمـرات العائـدة على الإنسـان من خلق الله هي أن يصل لرتبة الكمال النسـبيّ بمعرفة الحـقّ سـبحانه ومحبتـه، والخلـود فـي دار النعيم ونيل السـعادة الأبدية التي ليس فيها نقص أو كدر.

لماذا لم يخلقنا الله في الجنة مباشرة؟

إذا فهمنا أن أفعال الله ليست مبنية على البواعث النفسية، أو الاحتياج إلى غيره حتى يحصّل كمالا كالبشر، فينبغي أن نفهم أن أفعال الله مبنية فقط على إرادته، والإرادة هي صفة من صفات الله يترجح بها جانب فعل معين على جانب تركه، فالحق سبحانه اختار أن يخلق العالم ولو شاء لم يخلقه، واختار أن يخلق البشر ولو شاء ما خلقهم، واختار أن يكون هناك جزاء في الدار الآخرة وجنة للمؤمنين الصالحين، وعذاب للكافرين والظالمين، ولو شاء الله لأدخل الناس جميعا إلى الجنة من غير سابقة تكليف، وهذه الإرادة ليس لها أسباب وبواعث على ترجيح فعل معين مثل إرادة الإنسان، بل هي ترجح بذاتها، وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: **«ما شاء اللَّه كان، وما لم يشأ لم يكن»** أي أن وجود الأشياء وظهورها من حيز العدم إلى حيز الوجود متعلق فقط بالمشيئة والإرادة، لا لأي سبب آخر كالرغبة أو الشهوة أو الاحتياج سبحانه وتعالى، وهذا لا ينفي كما قلنا أن يكون لأفعاله سبحانه حكمة، لكن هذه الحكم والمنافع راجعة إلى خلقه وليست راجعة إليه، فهو غني عن العالمين.

وقد شاءت إرادة الله أن يعطي للإنسان الكمال شيئا فشيئا، ويكون هذا الكمال مترتبا على حرية الإرادة التي أعطاها له حتى يقيم عليه الحجة في الآخرة، فإن الله قد خلق الملائكة غير مخيرين فهم لا يعصون الله ما أمرهم، وخلق الجمادات لا تسمع ولا تعقل، ثم أراد أن يكون الإنسان أكمل الموجودات بما أعطاه من حرية الإرادة والاختيار فلذلك كلفه في الدنيا، وأهل الجنة متفاوتون في مراتبهم منهم من هو في الفردوس الأعلى ومنهم من هو في درجة أدنى، وكذلك أهل العذاب والجحيم منهم من هو في الدرك الأسفل من النار، ومنهم من يخفف عنه العذاب، وكلّ قد نال ذلك بإرادته وعمله وسعيه، **{وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}** [الكهف: ٤٩].

كما أنّ السعادة الحقيقية هي التي يتقدم عليها المشاق والصعوبات الموصلة إليها، حتى يعرف قيمتها، وإدراك الكمال والنعيم ومعرفته حق المعرفة يكون مع إدراك النقص والألم، ولولا الظلمة ما عرف الإنسان نعمة النور، ولولا الضلال ما عرف نعمة الهداية، ولولا التعب لما شعر بلذة الراحة، ولذا ورد في القرآن أن أهل الجنة يحمدون الله على ما آتاهم فيها، مع أنه ليس في الجنة تكليف أو أمر بالحمد كما هو في الدنيا، فيقول الله عن أهل الجنة: **{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}** [الأعراف: ٤٣]

ويقول عنهم: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [الزمر: ٧٤].

ويقول أيضا: { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} [فاطر: ٣٣ - ٣٥].

"فانظر كيف كان من أعظم سعادتهم وشكرهم لله أنهم قارنوا بما أذهب الله عنهم من الغم والحزن، والنصب واللغوب وهو التعب والمشقة."

مُقارنة بين مَوْقِفَيْن

ما دُمنا نتكلّم على الحِكْمة والهدف من الحياة، فيجدر بنا هنا المقارنة بين موقفين ونموذجين معرفيين في نظرتيهما للحياة والغاية منها، ونترك للقارئ وحده حقَّ الموازنة بينهما، واستنتاج تَصوّر لحياة الجنس البَشريّ على كلا النموذجين.

أمّا النموذج الأول،

فهو يقول إن اللهَ كَرَّم الإنسانَ، ونفخ فيه روحه، وأسجد له الملائكة، وسخَّرَ له ما في الأرض جميعًا من أجله، وأرسل له الأنبياءَ والرُّسُل ليُبَيّنوا له مُرادَ اللهِ منه، وليعرفوه جزاء الإيمان والعمل الصالح، ورفع الله قدره على الحيوان والنبات، وأباح له الانتفاع بهما في الطعام وغيره مع الإحسان إليهما، وضمان حق الأجيال القادمة فيهما؛ قال سبحانه: **{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا }** [الإسراء: ٧٠].

نموذج جعل للإنسان كرامة ولحياته معنى وحرّم على كل أحد أن يؤذيه أو يتعدى عليه بغير حقّ وجعل عاقبة ذلك العذاب العظيم في الآخرة، يقول الله في سورة المائدة: **{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}** [المائدة: ٣٢].

وأحد أهم ركائز هذا الموقف أنه يعتقد بوجود حياة أخرى يتحقق فيها العدل، ويُقْتصّ فيها من الظالم، ويُثاب فيها الطّيب الصالح في حياة أبديّة لا تنقطع فيها السعادة.

وهناك نموذج آخر،

يقول إن الإنسان قد وُجِد في رحلة الحياة بصدفة غير مقصودة، ليس لوجوده قيمة، ولا يَتَميّز عن غيره من الموجودات إلا عن طريق مجموعة من الآليات التي أدت عن طريق تطوّره إلى أن يكتسب الوعي، ويصير أرقى من بعض الحيوانات، بتعبير الفيزيائي الراحل ستيفن هوكنج هو «مُجَرّد حُثالة كيميائية على كوكب متوسط الحجم، يدور حول نجم متوسط، في مجموعة طرفية، في واحدة من بين مئات مليارات المجرات، نحن أتفه من أن أتخيل أن الكون كله موجود من أجلنا»[1]، ثمّ ليس هناك قيم مُجرّدة ولا أخلاق موضوعية، ولا حتى وجود لما نسميه بالخير والشر والمعنى، وأنّ آلامه لا معنى لها، وأنه ليس هناك عدالة أو قِصاص، وليس هناك جزاء على الصّبر على الشدائد والمحن وليس هناك عقاب على الجرائم والظلم.

كما يقول عالم الأحياء التطوري والملحد المشهور ريتشارد دوكنز في كتابه: «ما دام الكون مجرد إلكترونات فليس هناك معنى لمشكلة الشر أو المعاناة»[2]، ويقول أيضا: «في كون مُكَوّن من القُوَى الفيزيائية العمياء والتكاثر الوراثي بعض الناس يصابون بالأذى والبعض الآخر يصبح محظوظًا بدون أي تناغم أو سبب أو عدالة في ذلك، في النهاية ليس هناك قصد أو غاية ليس هناك خير أو شر، لا شيء إلا اللا مبالاة العمياء التي لا تشوبها شائبة»[3].

مرجع 1: STEPHEN HAWKING, From an interview with Ken Campbell on the 1995, Reality on the Rocks: Beyond Our Ken

مرجع 2: النهر الخارج من جنة عدن ص 132.

مرجع 3: النهر الخارج من جنة عدن ص 133.

وهـذه الرؤية المادية العمياء تزرع في وعي الإنسـان دون قصد معنى الأنانية وحب السـيطرة وفكرة البقاء للأقوى، لأن الضعيف لا مكان له أو اسـتحقاق للاستمرار في الحياة حسـب هذا النموذج المعرفي، ومعنى عـدم وجـود القيم الموضوعيـة من خير أو شـر، ونزوع الإنسـان إلى حب البقـاء وقضـاء الشـهوة، يسـقط معنـى العدالـة أو الرحمـة أو الإخوة، فيقلّ الشـعور بتأنيب الضمير عند ارتـكاب الجرائم في حق الآخرين، يظهر هذا بصورة واضحة عند قطاعات واسـعة من المجرمين في العالم، وقد جسدت السينما الأمريكية هذا المعنى بصورة واضحة.

ففـي فِيلم The Equalizer 2 للنجم دنزل واشـنطن، يقول له غريمه دِيف والـذي قـام به الفنان بيدرو باسـكال بعد أن قتل صديقته سـوزان لمجرد حصوله على أجر نظير ذلك حيث يعمل كقاتل محترف ومأجور، يقول بيدرو باسكال لدنزل واشنطن مُبَرّرًا قتل سوزان: « لم يَعُد هناك أشخاص طيبون أو أشـرار يا ماك، لم يعد هناك أعداء، فقط يوجد أشخاص حظهم سيء». اهـ فيسـأله دنزل: -«وماذا عن سـوازن؟» فيقول له: «سـيئة الحظ»، ثم يُنهي ديف الحوار قائلا: «أعفني من خطاب التأنيب، كان هذا هو التطوّر الطبيعي Natural Evolution وهذا ما نحن عليه».

”يمكنك عزيزي القــارئ أن توازن بين هذين الموقفين وهذين النموذجين، ثم تسأل نفسك ببساطة وبوضوح: أي الفريقين أهدى سبيلا؟“